مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com ISSN online: 2414-3383 ISSN print: 2616-3810
العدد (33) كانون الثاني - يناير 2019

تجليات اللون في شعر ربيعة الرقي (ت 198هـ)

أ.م.د. محمود سهيل عبد الله
كلية الآداب - الجامعة المستنصرية
بغداد - العراق

الخلاصة
يتناول هذا البحث تمظهرات اللون عند الشاعر الأعمى (ربيعة الرقي)، وقد حاول الباحث أن يثبت وجود ظاهرة اللون من خلال اطلاعه على ديوان شعر ربيعة الرقي الذي عُني بجمعه وتحقيقه الدكتور يوسف حسين بكار كما حققه الدكتور زكي ذاكر الفجر مادة للبحث والاستقراء، وقد جاء البحث موزعاً في ثلاثة مباحث، خصص الأول لتقديم موجز عن حياة الشاعر وأثر آفة العمى عنده، والمبحث الثاني عُني بدراسة اللون في نفسيته، وجاء المبحث الثالث مبنياً على قصيدة الشاعر الميمية، واشتمل البحث على خاتمة ضمّت أبرز نتائج البحث وثبتاً لأهم المصادر والمراجع التي استعان بها الباحث.

Manifestations of the Color in the Poetry “Rabia Al-Raki”

Assis .Prof.Dr. Mahmood Suhail Abdulaah

ABSTRACT
This research deals with the color of the blind poet (Rabia Al-Raki), and the researcher tried to prove the existence of the color phenomenon through his knowledge of the library of the poetry of Rabia Al-Raki, which was related to the collection and realization of Dr. Yusuf Hussein Bakkar, As achieved by Dr.Zaki Zaker Alfjer material for research and extrapolation, The second section deals with the study of color in the psyche of poet Rabia Al-Raki. The third section is based on the poem Rabia Al-Raki Al-Mimi. The research included a conclusion that included the most prominent results of the research and proved For the most important sources and references Which the researcher used.

المبحث الأول
نبذة عن حياة الشاعر ربيعة الرقي

اسمه: ربيعة بن ثابت[1]، بن لجأ بن العيزار بن لجأ الأسديّ الأنصاري الرقي[2]، وقيل إنه كان مولى من موالي سليم من بني أسد [3].
نسبه: إلى مدينة الرقة مدينة مشهورة على الفرات [4]، نشأ فيها.
لقبه: كان يلقب بـ(الغاوي) لكثرة اللهو والغزل في الجواري [5].
وفاته: كانت في عام (198هـ)[6].
أسرته: ذكر أمه ذكراً غير حميد، إذ كانت تثقل عليه وتحمله ما لا طاقة له به [7]. تذكر بعض المصادر أن الرقي كان أعمى [8].
صفاته: كان أَبيَّ النفس صبوراً، ومرحاً خفيف الروح [9]، وفي شبابه أخذ اللهو وصرح به في بعض شعره. وفي كبره امتثل للفروض الدينية من صيام وصلاة أما علاقته بالخلفاء فقد اتصل بالمهدي والرشيد[10]، وبالأمراء والولاة ومنهم العباس بن محمد ويزيد بن أسيد، ويزيد بن حاتم، وعنن بن زائدة الشيباني.
أما أخباره مع شعراء عصره فلم يعثر عليها صاحب الديوان [11].
وهو من شعراء القرن الثاني الهجري، طرق اغراض الشعر، واحتل الغزل في المرتبة الأولى، والهجاء أما الحكمة والشكوى والوصف فهي لا تتجاوز المقطوعة ، وهذا من خلال اطلاعي على ديوان (شعر ربيعة الرقي) الذي جمعه وحققه وقدّم له الدكتور يوسف حسين بكار، والدكتور زكي ذاكر الفجر الذي لم تطلع عليه .

أثر آفة العمى عند ربيعة الرقي:
إنَّ العمى ليس عيباً أو وصمة عار بقدر ما هي ابتلاء العبد من القدر المحتوم في الدنيا والأبصار في الآخرة عند الواحد الأحد، فهي عاهةٌ لا تحطُّ من الشأن والمنزلة من قيمة الأعمى. إذْ يتباين نوع العمل ((فالمولود أعمى يختلف عن الذي فقد البصر لاحقاً))[12].
فقد تبين من شعر ربيعة أنه لم يولد أكمهاً بل رأى النَّور، وعرف ما يدور من حوله، وهذا ظاهر في قصائده التي ردد فيها ألفاظ (رأى، رآك)، طرفي إذ قال في "عثمه" من قصيدة [13]:

تعرّض زائراً لك فارحميه فقد أورثت زائرك الجنونا
رأك وأنت مقبلةٌ فلما رأتك العين، همتِ لنا فتونا

وليس الأعمى كالبصير في سلوكه ومزاجه وإحساسه، فهو لديه معاناة خلقية دائمة، هو فقدان البصر وهذا ما يولد لديه عجز عن الرؤيا وإدراك الأشياء من حوله فتبرز ظاهرة الاختلاف في أنماط السلوك وفي الوقت نفسه جاهداً معايشة الآخرين، ثم الصراح الداخلي الذي يحسه بين عالم المبصرين وعالمه الخاص. إذْ يحاول ترفيه نفسه بأنماط سلوكية تعويضية عما فقده بين عالم المبصرين.
هو الاقتراب من رأفة الناس وعطفهم عليه، والتنفيس ما يلج في صدره من ألم وحزن، وخوفٌ من السخرية والذلة والاستهانة به.
ونرى من هذا الإحساس أنَّ شاعرنا يحمل بين مكنوناته شخصية متناقضة مليئة بالانفعالات والاضطرابات النفسية بين المرح والحزن.
فقد خلف العمى في نفس ربيعة حزناً وأسى أثقله مرارة العيش، مما ترك له الأثر في إبداعه، عبَّر عنه إذ قال:

وبلائي أن أمْي أثقلتنـــي بـــإزاري
فإذا ما قُمتُ أمشي هَمَّ خَصري بانبتاري
كلُّ ذا أحمِلُ وحدي أين من أمّي فِراري؟
أُمَتا هذا، وربي حِمْلُ برذونٍ بخاري
أُمتا لَستُ ببرذو نٍ ولا بَغْلِ مُكاري

فهو يسعى إلى إخفاء الظيم وشظف العيش على الرغم من هذا الحمل الثقيل من اعتداده بنفسه أقوى من مأساة عاهة العمى.
إنَّ الشاعر ربيعة استخدم كل طاقاته المُدخرة في حواسه كي يقضي على عاهة العمى هذا ما تبين من نتاجه الشعري إذ ولج الأنماط السلوكية التعويضية، والإنكارية والتبريرية، فجاءت شخصيته ملحة في التناقض، ففي السلوك التعويضي يلتمس محفزات أخرى ليعزز دور حاسة يستعين بها كما نجد ذلك في قوله [14].

هززتك هِزّةَ السيف المَحلّى فلمّا أن ضَرَبْتُ بكَ انثنيتُ

يقرن الشاعر الشجاعة والفخر بحاسة السمع، ويعطي الأذن وظيفة طيعة استعارها بحاسة اللمس والصوت الناتج عن هزة السيف وصوت الضرب بالسيف وينسى معاناته البصرية.
ومن محاولاته التعويضية للتغلب على عقدته النفسية في وصف حبيبته (سعاد) في وصفها حسياً بدل العين، إذ قال [15].

مَرتجةٌ الرِّدفِ، مفهومٌ شواكِلُها تمشي الهويني كمشي الشارب الثَلِمِ

ويحس الشاعر الرقي بارتجاج أرداف حبيبته، ويسمع تأودها في المشي لا سريعة ولا بطيئة، وهي كالشارب الثمل المترغ في مشيهِ فإذا ما أقترب من صوت ارتجاج ارادفها وحثيث مشيها لا تبعده عن إدراك رؤيتها بالعين وقد استدعي ربيعة الرقي حاسة الشم في حبيبته (عثمه) من سلوكه التعويضي الساخر من الرجل الجعفي في قوله [16].

جُعفيٌّ جيرانَها، فقد عَطِرَتْ جُعفيٌّ مِنْ شرِها وريَّاها

فالنثر والريا ريح طيبة ويقال ذلك للمرأة، وقد ساق الرقي هذا النشاط من حاسة الصوت والشم ليثبت إبداعه على الرغم من فقدان البصر طالما الفطنة والذكاء موجوداً فيه.
أما سلوكه في إنكار عاهة العمى فقد تداعت له الحيل اللاشعورية للهروب ورفض التسليم والتفتيش عن وسيلة يخلق من شخصيته مبصراً في استثمار مواطن منحه الله لأكثر من الأبصار، أو يفترض نفسه مبصراً في اقناع المتلقي إذ قال في "عَثْمَة" [17].

تَعَرَّضَ زائراً لك فارحميه فقد أورثتِ زائِرَكِ الجنونا
رأكِ، وأنتِ مُقْبِلةٌ فلما رأتكِ العينَ هِجْتِ لنا فُتونا

فهو يُنكر عنه عاهة العمى، ويثبت ذلك رؤيته (عثمة) حين أقبلت وما أصابه من شوق وحسرة.
وحاول الرقي في انكاره فقدان البصر مستتراً بحياء وخجل من حبيبته (سعاد) موجهاً نظرهُ إلى قدمه لا يرفع عينيه في قوله [18].

فزرتُها واقِعاً طرفي على قدمي وقد تلبستُ جلبابين من ظلَمِ

بل راحَ يصرح أنه يراها في الخيال والحلم ويراها في الحقيقة، فيقول:

أهلاً بطيفك يا سعدى المُلِمُ بنا طيفٌ يسير بلا نجم ولا عَلَمِ
ما أكذبَ العينَ والأحلام قاطِبةً أصادقِ، مرةً في وصَلِهَا حُلُمي؟

فهو لا يعطي للعين أهمية بل القلب الذي يموج في تباريح العشق الذي فتكت به الأشواق.
لقد ترجم ربيع الرقي صفاته الخلقية من اعتداد بالنفس والكبرياء عن الدنيا أحسن من رؤيا العين، فما فائدة العين إن خفيت البصيرة، إذْ البصيرة تُنورُ العقول وتفرح القلوب التي في الصدور في الابتعاد عن الدنايا ومراقبة الحساد والواشين كقوله [19].

وأمنحُ طرفَ العين غيركِ رقبةً حِذارَ العِدَا والطرفُ نَحْوكِ أميَلُ

لكيما يقولُ الناسُ: إن أمرأ رمى (ربيعة) في (ليلى) بسوءٍ لمُبطِلُ

وفي قصيدة له يركز على صفة الكرم وقول الشعر ومجاراته للشعراء المعروفين وهي صفتان قلما موجودة عند البصريين إلا في الفرسان الشعراء الذين لا يهابوا القصاص والعقاب ولا تقتلهم الحسرات على ما بذلوا من أموالهم في سبيل المعروف للناس أو أنفسهم وهو واحد منهم في قوله [20]:

سائلي عن شعراءِ النّاسِ هل غاصُوا مَغاصي؟
قُلتُ شِعراً يُنزلُ الأعـ صم من رأس الصياحي
باذل في الخير لا ينتـ ظرُ منه في أرتخاصِ
مُهلِّلكِ الأموالِ في اللَّذاتِ مخشيٍّ القِصاصِ

إذ برهَنَّ شاعرنا أن حصيلته المعرفية كرمه وذكاءه أنساه ما فقده من عمى وأذكى فيه روح الباصرة والسؤدد ما لا يدركه المبصرين.
لقد جَدَّ جدَّ الرقي في حلكة الليل وهو مقسم بين الشوق للرؤية وسهام اللحاظ التي تصمي قلبه الجريح فيروح عن نفسه بسلاح التبرير من عاهة العمى لتبرئه ذاته من الشعور بالذنب [21]، إنما هو يعلل السلوك بأسباب منطقية يقبلها العقل، مع أن أسبابه الحقيقية انفعالية[22].
إذ يلجأ إلى الصراع من لا يريد له الخير وهو يكافح القسوة، ليدفعَ ضريبةَ اتهامهِ بالفسوق في قوله لحبيبته (داع) [23]:

أيَّها الناسُ ذروني لستُ من أهل الفلاحِ
أنا إنسانُ مُعنًى بهوى المَرْضِ الصحاحِ
غيرَ أني لست أغشى أبداً بابَ السفاحَ
أو أرى الصُّبحَ وإن كا ن لفي الصَّبْحِ افتضاحي

راح الرقي يضخم نصه الشعري إذ ركزَّ فيه (أنا) أكثر من مرة في القصيدة، ليثبت حقيقة كونه جاداً فيها ودافعاً عن نفسه الرذيلة في البيت الثالث، علماً أن الصبح سيكشف الخطايا فهو يرى ذلك.
ويستمر ربيعة الرقي تبريره عماه فهو أجرٌ وعصمة ولا يمنعه من الحب والغزل في محبوبته. فكثير من المبصرين صمٌ بكمٌ عميٌ وقد رحمه الله أنه لا يرى أحد منهم فهو يتحمل اللوم. إذْ اللوم مثل الريح يذهبُ ضلهِ وتبقى نيران المُحب مشتعلة فيقول على لسان حمامة تحمل سلاماً إلى (عثمة) بقوله[24]:

وإن جميعَ أهلك عنّفوني ولاموني، ولم أطق الملاَمَا
كرامُ الناسِ قبلي قد أحبّوا كرائمُهمْ وأحببنَ الكراما

(جميلٌ) و (الكثير) قد أحبّا و (عروةَ) من هوىً لاقى حماما
هُمُ سَنَّو الهوى والحُبُّ قبلي وما ألفي لَهُمْ في الناس ذاما
فيا (غَنّامُ) يا بصري وسمعي رسيسُ هواكِ أورثني سقاما

وفي كفاحه وتشاغله عن عاهة العمى، جرى الحمدُ في صدره أن يرى الذكاء، والفِهم، والفطنة غاية المنى وهي غائبة عن كثير من المبصرين، لكنها محصول نفسه المتيقضة ما قاله في (سعاد) [25]:

جاء الرسولُ بقرطاسٍ بخاتمه وفي الصحيفة سِحرٌ خَطَ بالقلمِ
فيه فتونٌ ظلَّت تغيبّهُ على الجهول وما يخفى على الفَهِمِ
وقد فهمْتُ الذي أخفَتْ فقلت لها: بُوحِي بلا ونعم من بَيَّنِ الكَلِمِ

بل يدفع عنه الملامة من الحساد
بقولهم أنك أعمى، إن قلبه واعي، والحُب في القلب لا العين في قصيدته[26].

وما ذنبي، وحبَّك هاج هذا ولو تُرِكَ القطا لغفا وناما
ولو أَبصَرْتَ (غنمة) ذات يومٍ وقد سفرت وأحدرت اللثاما
وكلُّ الحُبِّ لَغْوٌ غيرَ حُبّي فقد أردى الحَشَا وبري العِظَامَا

وأرى في هذا المفصل شاعرنا الذكي أرضى نفسه وتلمس العوض عما فقده من حاسة تجري مجرى الروح في الجسم فنرى يفند خسارته بترجمان العون من ربه وسلاح الشجاعة والاعتداد بالنفس ومناهضة النكوصُ واليأس. فجاء نصه الشعري باسم الثغر نير الأفكار رائع العذوبة والرقة.

المبحث الثاني
اللون في نفسية الشاعر ربيعة الرقي

اللون هو مُدرك ومثيرٍ حسي يرسمه الشاعر بصورة شعرية، ويُعدَّ أحد المحسوسات المكونة للصورة يتقدم غيره من المحسوسات، ويكون لَه من بعدٍ دلالات وإيحاءات ورموز تفوق ما عداه من سائر المحسوسات [27].
واستخدمه شعراء العرب وهم يطوون المفارز والربى والوهادِ معبرين مشاعر من فرح وشؤوم، وشاعرنا الرقي من الذين تمتعوا بمدارك جيدة وإحساس رقيق وذكاء وقاد، إذ لم يَلد (أكمه) من ولادته فمن تقصي ديوانه يسعفنا محصوله الشعري وصوره له معرفة بالمعطيات البصرية وإن عينيه الناظرة منحتة في صغره استرجاع مدلولات اللون ولو باليسير.
وللطبيعة عطاءٌ ثر رُزق منه الرقي، ليطفي غلواءه من خلال أختياره الألوان، وقد أختصر الباحث اللون الأبيض والأسود في عطاءه وما يحملان من دلالة نفسية، فقد وظف الشاعر اللون الأبيض في مقطوعته الشعرية، باستفهام ضوء النار الدال على البياض والوضوح أنارة طريق السارين، وهو يرقب هذا الضياء الذي يطرد العتمة فتأملها وفؤاده المعنى يلفه الغرام وقد أنس برؤية ضياء وبياض هذا الكوكب وقد اتى بالفعل (حنّ) فظهور هذا الكوكب خفف آلامه فيقول في قصيدته [28].

لمنْ ضوءُ نارٍ قابلت أعينَ الركب تشبَّ بلدن العُودِ والمندِل الرطب؟
فَقلتُ: لقد آنستُ ناراً كأنها صفا كوكبٍ لاحت فحنَّ لها قلبي

كما يصبح اللون الأبيض وميض بشارة الحُب في فؤادهِ المحترق في كلمة (قدحاً) شرارة النار، قوله[29]:

صارَ قدحاً (حُبَّ داحٍ) في فؤادي المستباحِ

كما استمر الرقي في قصيدته وصف حبيبته (داحٍ) من خلال مدح الربع الذي تحلُ فيه (الحبيبة) راح يصف اخلاقها بالنّقاء والبياض من أصل طيب الأعراق مليحة الأردان فقال :

إن ربَعَ ابن نصيرٍ مَعْدِنُ البيض المِلاحِ [30]

ولقد ربط في البيت التالي حاسة اللمس باللون الأبيض وهذا ظاهر عند تصحيح مسار البيت في وصف (داح) بنفس الوضوح:

تلمست العُكنَ البيـ ـضَ من الخود الرَّداحِ

أي لمسته طوبته بطنها الممتلئة (البيضاء الشابه، فسخر حاسّينَ معاً ليشدَ من أزر فقدانه البصر وأظهر ذلك في كلمة الصباح الدال على الاشراق والوضوح بضوءهِ الأبيض حمله دلالة النهوض وجلاء الليل في قوله:

ثَمَّ لما صاحَ ديكٌ قبل إبان الصباحِ
أو أرى الصُّبحُ وإن كا ـن لفي الصبحِ افتضاحي

وهو يبرر حرمانه النفسي في الفعل (أرى) عاكساً من خلال أبياته الشعرية عدم الاستسلام فجاءت ناقوس رحمة من الضياع في غياهب عاهة العمى.
استعمل الرقي (البَردَ) الثليج كناية اللون الأبيض لأبراز صورة الحبيبة وانعكاسها على نفسيته فيقول [31]:

تسقي الضجيج رُضَاباً من مُقَلِّها من بارِدٍ واضحِ الأنيابِ كالبردِ

ولقد ربط اللون الأبيض بألوان أخرى مع استحضار الشاعر كل طاقاته من الطبيعة في قوله [32]:

والثنايا الغُرِّ كالبرِ ـقِ تلالا في النشاصِ

إذ إن رخاص الحبيبة ثناياها بيضاء تشبه البرق حينما يلوح في السحاب تحت عتمة الليل، فأعطت هذه الصورة اللونية من بياض وظلمة السحاب انعكاس نفسي له أثر عميق عند الشاعر ولعله لاح في عينيه بارقة الاستذكار في صباه رأته عينه. لذا جاء اللون الأبيض متشظياً بين ثنايا القصيدة.
في كلمة الأعصم؛ الظبي الذي في ذراعه بياض:

قلتُ شِعراً يُنزل الأعـ ـصم من رأس الصياصي

وفي كلمة (واضح الوجه) أي وجه الحبيبة وضاح ناصع البياض:

ونديـمٍ أريحـــيٍّ واضحِ الوَجْهِ مُعاصِ

وفي كلمة (اللجين) الفضة البيضاء في قوله:

في أباريـقِ لَجيـنٍ لا أباريـقِ رصاصِ

ويتعامل الشاعر مع هذه المحسوسات المادية، وكأنه يراها يظهر انعكاس نفسي على وعي الشاعر.
وقد استحضرا الرقي اللون الأبيض والأسود في المفردتين (الصبح) الدال على البياض، والليل، الدال على السواد في قوله [33]:

مَنْ شرَّ ما يعرضُ مِنْ عِلةٍ في الصبحِ واللَيْلِ إذا سدفا

فقد وجد في الطبيعة ظالته المنشودة في بياض الصبح وعتمة سواد الليل ما يكشف القلق الذي يراوده في نفس حُرِمتِ من الرؤيا.
وقال الرقي في مدحه العباس بن محمد بن العباس [34]:

وإذا الملوك تسايروا في بلدةٍ كانوا كوكبها، وكنت هِلالها

استعمل مفردتين- الكوكب، والهلال- وهما الدالان للوضوح والظهور والضياء ومتعة للعيون، فأعطى الممدوح صفة الحسن والجمال من خلال التشبيه الملوك كالكواكب المضيئة، وممدوحه العباس (كالهلال) ناصع البياض يلمع في عيون السارين.

ونرى قصيدته التي أرسلها على لسان (حمامة) إلى محبوبته (غنمة) تُعدّ شاهداً شوق ومرسال أمل بين عالمه النفسي ونصه الفني فجاء في الأبيات التالية[35]:

فيا ليتَ النهارَ يكونَ ليلاً ... وليتَ الصَّبْحَ لا يجلو الظلامَا
إذا ابتسمت حَسبتَ الثغر منها ... تألقَ بارقٍ يجلوا الظلاما
حلت ببشَامةٍ برداً عِذاباً ... كأنَّ عليه مسكاً أو مُداما

ففي قصيدته لوحتي الليل والنهار والمقابل لها في طباق رائع في مفردة الصبح والظلام وجاء اللون الأبيض متنفساً يبرز ما يمكن النفس في البيت الثاني الثغر الباسم كالبرق الخاطف في سدنة الليل المظلم، فأعطى اللون الأبيض في غمرة الطباق البلاغي وضوحاً جلى اسنان حبيبته غنمه التي تشبه الثلج (البرد) في البياض وقد سُكِبَ عليه المسك أو الخمرة الصافية.
وفي قصيدة له قالها في حبيبته (سعاد)، وقد كشف فيها عن اللون الأبيض، إذْ فكَ عُرى أسره وخوالج نفسه الملتاعة وبين عماه والغرام في أبياته [36]:

أقدِمْ ربيعة في رحبٍ وفي سعةٍ ... في غير قمراءَ، والظلماءَ فاغتنمِ
أهلاً بطيفك يا سعدى الملِمِّ بنا ... طيفٌ يسيرُ بلا نجمٍ ولا علمِ
قالتْ فؤادُكَ بين البيض مُقتسمٌ ... ما حاجتي في فؤادٍ منكَ مقتَسَمِ؟
أو بيضة في نقا، أو درةٌ خرجت ... من زاخرٍ مُزبِدِ الآذيِّ ملتطِمِ
لاقيتُ عند استلام الركن غانيةً ... غراءَ واضحةَ الخدين كالصنمِ

ونلحظ في النص السابق أن الشاعر يدلف الليل وتحت ستارهِ عاشق ومعشوق، أباح اللون الأبيض نفسيهما من احزان وفرح، تجاوز البعد البصري الذي فقده ربيعة وهذه المفردات (قمراء)، (نجم)، (البيض)، (بيضة)، (غراء واضحة) فجاءت بصور شيقة ممتعة كان يتمناها في قرارةِ نفسه، واصفاً بها أجزاء دقيقة، ولاسيما في المرأة [37].
ولا نستغرب في غزل ربيعة إذْ جعل الطبيعة ملاك روحهِ من نجم وقمر وشمس وما يدبَّ في نفسه من ظلمة العاهة فيجعلها مفتاح تشويقي مضيء عن سدمة الظلماء، ما ظهر في قوله [38]:

فما الشمسُ المضيئة يوم دَجيٍ ... بأحسن منك يوم تبذلينا

إذ إنَّ أوصاف اللون الأبيض تكررت كثيراً في نصوصه لاسيما في وصف محبوباته فضوء الشمس المشرق في يوم معتم وغائم كان ضياء وجهك وبياضه أحسن ما في الشمس، علماً أن الرقي لم يرَّ الشمس، لكنه عبَّر عمَّا يكمن في صدرهِ فأصبحت هذه الصورة الجمالية المضيئة التي تبرر حالته النفسية الملتاعة لرؤية ما يدور حوله.
أما اللون الأسود فقد ضرب فسطاطهُ على نفسية الرقي، وكان يحلم بنعمة البصر المفقودة، وقد سلبت منه الرقاد ولذاذة الأغفاء، إذ غيب الظلام كل شيء، ولفت عتمة الوجود واعتكف في صومعة التبتل الأبدي، ينسج الخيال مصابيح وهو يعلم أن الليل أخفى للويل، لذا يعتلي صرح المبصرين معللاً نفسه بالآمال، في قوله [39]:

قد تجشمتُ اليها ... هولَ ليلٍ ونباحِ

ففي الليل رفرف الأمل ونفَّس عن كربة القهر بحديث أو لحظة لقاء مع (داح)، أنه ليل تساوى فيه المبصر والضرير، قضى ليله مفزع العتمات وسلك الدروب وشدَّ الأزر على الضلوع، لينتصر ما هو آتٍ من حبيب تُحبس عند لقاءه الكلمات ونباح الوحش لا تغفر له الغياب إذْ جعل من لون الليل الأسود مفتاح آمل مشرق ينتظره ساحة اللقاء المرتقب.
ويصبح الليل وسواده المعتم صفة جميلة تلازم محبوبته (غنم) عاكساً أثاره على أحساسه كأنه ظاهرة تنوير تَخفف من ظلام أحزانه في قصيدته [40]:

وأنتَ طيبة في الغيظ باردةً ... وفي الشتاءِ سخونٌ لَيلَةَ الصَّرَدِ

ويتسربل الشاعر في ليل ذي رداء مظلم مع فتيةً ينسجون أحلامهم تحت قبة الظلام إلى حانة علها تشفيهم من وجعهم فيطفؤن نار الوحشة (بزق أسود اللون)، فقال [41]:

ولدنيا أدكَنَ الجلـ ـدةِ كالزنجي شاصي

لقد اقترن اللون الأسود بفكرة تُخامر خياله بين المعصية، وهي الخمرة وعاهة العمى، وجعل من إيحاءه المعكوس في اللون الأسود إحساساً خاصاً يريحه من الأسى والحرمان، فجعل من زفة الداكن (الأسود) رشفة حُبَّ تطفيء غليله الملتاع.
وما الليل وسواده إلا مَربَع الضيف الغرثان وهادي السارين إلى القِرى، والسماءُ الطارق. في منتصف الليل فجعل من عتمة الليل صفة مدح لشخص يزيد ابن حاتم المهلبي، في قوله [42]:

طارقاً، موهناً، آلمَّ فحيَّا يا يزيدَ الندى تقيك الحتوفا

إذْ نقل لنا فلسفة نفسية عن مدرك اللون الأسود علامة أرتياح في عين الذين يطلبون الغنيمة والعطاء، فجعل منها مفردة مكافأة على المشقة وازَاحة الهم ومرارة العيش.
وهو يتقلب قلقاً من استمرار الليل وبأثره نهارُ فلا فرق عنده، كلاهما سواد في عينيه. غيبةُ القدر المخفي، والحيرة الأبدية، وهي تلوح عنده حتى في التعويذة وطرد الأذى، فهو يراوده في الليل والنهار كما في قوله تعويذة لبنت مولى عثمة[43]:

من شَرِّ ما يَعرُض مِن عِلةٍ في الصبح والليل إذا سدفا

فجعل العلة (المرض) والشر معاً عاهة باقية في الليل والنهار كعاهة العمى عنده.
وينتابه من شخصيته القلقة انعكاسات اللون الأسود في ليله، فمرةً يصب عليه جام الغضب، وتارةً رسول حَبٍ ولقاء أمل، يدعو له بالطول، طوال وليل العاشقين طويل فيقول [44]:

فيا ليتَ النهار يكون ليلاً وليث الصَبَح لا يجلو الظلاما

لقد قرَّن الرقي النهار بالليل وآخذ يدعو لليل يا لطول، فجعل من سوادِ مفتاح أمل وبشارة خير إلى لقاء كان يتمناه.
ومن خلال هذا الربط بين الليل والنهار ليثبت أنه مبصر وليس عاهة العمى مانعة من عصارة الغرام والحب الذي ينتظره حتى في عتمة الليل.
ويصف لنا في حديث آخر من قطعة شعرية له بتفضيله الظلام والسواد من خلال مرحلة الغرام واللقاء بمحبوبته (سعاد) فهو يفضل الليلة المظلمة حالكة السواد بعيدة عن عيون الرقباء فيقول [45]:

أقدِمْ ربيعة في رحبٍ وفي سعةٍ في غير قمراءَ، والظلماءَ فاغتنم
فزرتها واقعاً طرفي على قدمي وقد تلبستُ جلبابين من ظلمِ

إن الشاعر لا يستسلم للقدر لأنه لا يراها بل راح يصف النقاء والبياض في خليقتها فالناسُ كلهم خلقوا من الصلصال الحمأ المسنون الأسود المعتم، وجعله أداة ألم وعقوبة وحزن لما يحزُ في نفسه، وهي مخلوقة من مسك أبيض نقي... كقوله[46]:

خَلقتِ مِنْ مسكةٍ، والناسُ خلقَهمْ من لازبِ الطين، من صلصالةِ القتمَ

إنَّ الرقي عكس خوالج نفسه الإنسانية برداء اللون واصفاً معاناته بين الفرح والحزن تحت سياط الغرام فتمنحه حواسه نسيان عاهة العمى.

المبحث الثالث
ربيعة الرقي وقصيدته الميمية

لاحظنا في المباحث السابقة إنَّ عاهة العمى شكلت ظاهرة الوجع الدامي داءاً دوياً في رحلة العمر، فتتبلور آنات تسمو فوق القدر، لتهيج تباريح القلب، فجعلت رشقات الحب الذي صَيَّر ربيعة بعناده (العمى) أن يتخذ حواسه الأخرى تتجاوب الشوق والحب والحنين عابراً صدمة الإحباط هذا ما ترمي إليه جزء من قصيدة ربيعة (الميمية) قال في (سعاد)[47]:

1- دسَتْ سُعاد رسولاً غير مُتّهمِ وصيفَة، فأتت إتيانَ مُنْكتِمِ
2- جاءَ الرسولُ بقرطاسٍ بخاتمهِ وفي الصحيفة سِحْرٌ خُطَّ بالقَلَمِ
3- فيه فتونٌ هوىً ظَلَّت تغيبَهُ على الجهولِ وما يخفى على الفَهِمِ
4- وقد فهُمت الذي أخفت فقلتُ لها: بوحي بلا ونعم من بَيّنِ الكَلِمِ
5- قالت: تعالَ، إذا شئت، مستتراً والحكمُ حكمُك يا رْقّيَ، فاحتكَمِ
6- أقدمْ ربيعةَ في رَحْب، وفي سَعَةٍ في غير قمراءَ، والظلماءَ فاغتنَمِ
7- فَزرتُها واقعاً طرفي على قدمي وقد تلبستُ جلبابين من ظُلَمِ
8- أهلاً بطيفك يا سعد المُلِمِّ بِنا طيفٌ يسير بلا نجمٍ ولا عَلَمِ
9- أنتِ الضّجيعُ إذا ما نمتُ في حُلَمي والنجمُ أنتِ إذا ما العين لم تنمِ
10- ما أكذَبَ العينَ والأحلامَ قاطِبَةً أصادِقُ مرةً في وصلِها حُلُمي؟

إنَّ أول من عُني بالرسائل الغرامية (عمر بن ربيعة العامري) لكن التعمق والتفاوت في المراسلات الغرامية عند ربيعة هو بدافع التقدم الحضاري والثقافي الذي تقدّم خطوات كثيرة بعد القرن الأول وشمل حتى الجِواري، إذ عرفت أعداد كبيرة منهن بثقافتهن وتعلمهن [48]، وهذا صدى للعصر لمعرفة المرأة العباسية للقراءة والكتابة وهذا ظاهرٌ من البيت الثاني من القصيدة (بقرطاس) و (خط بالقلم)، كما تبرز بؤرة النص من الوهلة الأولى في البيت الأول حاسة الإخفاء والهمس في الأذن في كلمة (دست) التي تأزرت فيها جميع الحواس داخل القصيدة فاتسعت إذ حملت نسيجياً مترابطاً من تساؤلات الحب المبرح أركانه (العاشق/ والمعشوق) يضربه في غياب الجاهل بالأمر والعارف بالفطنة (الفهم) في البيت الثالث متناسياً الرؤية البصرية، فهو يتسربل بهيم الليل بسواده المظلم مرتدياً جلباب داكن ليمنح نفسه السرور والغبطة عازفاً عن ضوء القمر، للقاء ينسيه لوعة الفقد والضياع فيستشعر إضاءة الأمل مِن الرمق الأول في القصيدة بجملة خبرية فعلها (ماضي دست) الذي يحمل المنازعة مع أحداث النفس التي تترقب وصول المرسال بعيداً عن عيون الرقباء.

ويرحل الرقي تحت رحمة طيف الخيال مع (سعدى) لتهمس في أذنيه رؤوية النجم للسارين في عتمة الليل، وللعين هفوات، أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، إذ أشار بن حزم قال: (إنَّ وصول الكتاب إلى المحبوبة وعلم المحب أنّه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية)[49]، وإن لرد الجواب والنظر إليه يعدل اللقاء فقد يلجأ العاشق وضع المرسال على عينيه وقلبه، ونجد في قصيدة ربيعة الرقي، وهي محكمة الشبك قوية المعاني فضلاً عمَّا احتوته من تصنيع بلاغي حاول فيه (ربيعة الرقي) من خلال أسلوب التقديم والتأخير في البيت (3) (فيه فتون)، وفي استخدام حروف الجر (الباء) في البيت رقم (2) وفي البيت رقم (6) وأسلوب الأمر في كلمة (تعال، فاحتكم) في البيت رقم (5)، ومن خلال المجاز الرائع الذي استخدمه (جلبابين من ظُلم) في البيت رقم (7)؛ مضافاً إلى ذلك طباق الإيجاب والسلب الذي لم يفرط الشاعر في استخدامه المتمثل في كلمتي (بلا) و(نعم) في البيت رقم (4) وكلمتي (قمراء) و(ظلماء) في البيت رقم (6) والجناس الناقص في الكلمات (الحكم، حكمك، فاحتكم) كما في البيت رقم (5). وبراعته في الطابع السردي القائم على الحوار بين شخصيتين الشاعر وحبيبته (سعاد) وتجدر الإشارة هُهنا إلى موسيقى القصيدة فقد جرت على البسيط وهو سجر مزدوج التفعيلة يتكون من تكرار (مستفعلن فاعلن) مرتين في كل شطر غزير الموسيقى، كما يرى الدكتور عبد الله الطيب (فيه اضطراب وحجلان بين الخفة والثقل، وقد كرهته أذواق المتأخرين إلا قليلاً، لأنه فيما يبدو نغم بداوة يصلح للشدو وما إليه ، ولا يستقيم عليه ما يطلبه الذوق الحضري المعقد

من أنواع الغناء [1]، ولكن في هذه القصيدة وجدناه خفيفاً عذباً مطرباً، يتناسب مع ما يحسه الشاعر من أمل اللقاء بحبيبه، وقد أضفى الإيقاع الداخلي بتصريع ينثني من القصيدة هما (1) و(9) على الموسيقى الشعرية لها رونقاً وبهاءاً .

الخاتمة

وبعد فإن الحديث عن اللون وانعكاساته عند الشاعر الأعمى ربيعة الرقي له أهمية فنية ونفسية لاسيما اللون الأبيض والأسود أكثر من غيرها من الألوان لأنهما يمثلان نفسيته التي تغشاها عتمة الظلمة وانبلاج الصور فأبدع في استخدامه لهما.

وقف الباحث عند عاهة العمى، فصيرّها جزءاً يَسيراً من النقص الحسي في الجسم ويمكن تعويضها بالحواس الأخرى، معتمدين على التعبير النفسي الذي يتلاءم مع الوصفية التعبيرية لديه، إذْ وظّف الشاعر ربيعة الرقي اللون توظيفاً كنائياً لارتباط الكناية بالأعراف الاجتماعية.

أحتلت صورة المرأة في شعر ربيعة الرقي مكانة مرموقة فأبدع في انتاج صورتها اللونية التي أظهرت قدرته الفنية باعتبارها أهم المناظر الحسيّة التي شغف بها، إذْ جعلَ في الطبيعة بركنيها الصامتة والمتحركة ما يتململ في نفسه من خلال استخدامه ألفاظ الرؤية والمشاهدة في خلق المساواة بين حاستي البصر والسمع والذوق تعويضاً، عما فقده من البصر.

الهوامش

(1) العمدة: 2/ 173.
(2) الأغاني: 16/ 189، نكت الهيمان: 130، الديوان: 13.
(3) وفيات الأعيان: 5/ 365، 367.
(4) الديوان: 13، معجم البلدان، ج6/ 156.
(5) الديوان: 14، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف: 380.
(6) معجم الأدباء: ياقوت الحموي: ج11/ 146.
(7) الديوان: 15.
(8) الأغاني: ج16/ 189، الديوان: 16، نكت الهميات: 131، العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ج1/ 379.
(9) الأغاني: ج16/ 198- 199، الديوان: 19.
(10) الديوان: 21.
(11) الديوان: 25.
(12) د. ريكان ابراهيم، نقد في المنظور النفسي، ص130.
(13) الديوان: 103.
(14) الديوان: ق2/ 67.
(15) الديوان: ق16/ 93.
(16) الديوان: ق25/ 108.
(17) الديوان: ق21/ 103.
(18) الديوان ق16/ 91.
(19) الديوان ق13/ 84.
(20) الديوان ق10/ 79.
(21) شعر المكفوفين في العصر العباسي، 64.
(22) انفعالية الأسس الصحة النفسية، د. عبد العزيز القوصي، 136.
(23) الديوان: ق3/ 69.
(24) الديوان: ق3/ 69.
(25) الديوان: ق16/ 19.

(26) الديوان: 515/ 89.
(27) ينظر: الصورة الشعرية والرمز اللوني، د. يوسف حسين نوفل، 179، الرسالة 59.
(28) الديوان: ق1/ 66.
(29) الديوان: ق3/ 68.
(30) الديوان: بـ/ 18
(31) الديوان: ق7/ 76.
(32) الديوان: ق10/ ب8.
(33) الديوان: ق12/ 83.
(34) الديوان: ق14/ 87.
(35) الديوان: ق15/ 88.
(36) الديوان: ق16/ 91.
(37) الصورة البصرية وتداخلاتها في شعر الأكمه نيازي بن برد: 9.
(38) الديوان: ق2/ 102.
(39) الديوان: ق3/ 69.
(40) الديوان: ق7/ 75.
(41) الديوان: ق1/ 81.
(42) الديوان: ق11/ 82.
(43) الديوان: ق12/ 83.
(44) الديوان: ق15/ 89.
(45) الديوان: ق16/ 91.
(46) الديوان: ق16/ 93.
(47) الديوان: ق16/ 91.
(48) يُنظُر: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري: 325.
(49) طوق الحمامة: 33.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، د. يوسف حسين بكار، دار المعارف بمصر، 1971.
2. الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت 356هـ)، تح. د. إحسان عباس وإبراهيم السعافين، والأستاذ بكر عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ت.
3. ديوان شعر ربيعة الرقي، جمع وتحقيق: د. زكي ذاكر الفجر، وزارة الثقافة السورية، دمشق،
4. شعر ربيعة الرقي (الديوان)، جمع وتحقيق، الدكتور يوسف حسين بكار، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العر اق، 1980.
5. طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ابن حزم الأندلسي (456هـ)، تحقيق صلاح الدين القاسمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1981.
6. العصر العباسي الأول، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط5، 1975.
7. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط2، القاهرة، 1955.
8. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله المجذوب، دار الفكر، ط2، بيروت، 1970م.
9. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، (ت 626هـ) اعتناء د. س. مرجيليوث، طبعة الموسكي، مصر، ط2، 1928.
10. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د. ط)، 1975.
11. نكت الهميان في نكت العميان، صلاح الدين بن ايبك الصفدي، تح الأستاذ أحمد زكي بك، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2007م.
12. وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الفكر، دار صادر، بيروت، 1972م.